عنوان الشعوب وأساس الحضارة وغاية بعثة النبي «صلى الله عليه وسلم»

الأخلاق مجموعة عادات وتقاليد تعيش بها الأمم كما يحيا الجسم بأجهزته

كما ظهرت الأخلاق في خطب الخلفاء الراشدين حين قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :«أما بعد، أيها الناس، فإني قد وُلِيتُ عليكم ولست بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :«إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني» و«ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق ضائع» و«عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه».

ولخص الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الأخلاق الإسلامية حين قال للنجاشي :«أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك».

وفي صحيح البخاري عندما سأل هرقل عظيم الروم أبا سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم كان من بين ما سأله عنه أن قال: «ماذا يأمركم ؟» فقال أبو سفيان: «يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة» متفق عليه.

فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق والآداب التي حث عليها الإسلام وذكرت في القران الكريم والسنة النبوية، اقتداء بالنبي محمد –صلى الله عليه وسلم– الذي هو أكمل البشر خلقا لقول الله عنه «وانك لعلى خلق عظيم» (سورة القلم).

وقد عرف الشيخ محمد الغزالي الأخلاق بأنها «مجموعة من العادات والتقاليد تحيا بها الأمم كما يحيا الجسم بأجهزته وغدده».

وقد اتخذت الأخلاق الإسلامية شكلها تدريجيا من القرن السابع الميلادي وتأسست وترسخت أخيرا في القرن الحادي عشر الميلادي، وتشكلت في نهاية المطاف من الاندماج الناجح لتعاليم القرآن الكريم، وتعاليم السنة النبوية الشريفة سنة النبي محمد–صلى الله عليه وسلم–، والسلف من فقهاء الشريعة الإسلامية (انظر الشريعة والفقه)، والتقاليد والعادات العربية ما قبل الإسلام، والعناصر غير العربية (بما في ذلك الأفكار الفارسية واليونانية)، أو المتكاملة مع الهيكل الإسلامي والبنية الإسلامية عموما.

على الرغم من أن تعاليم الإسلام من قرآن وسنة قد أحدثت « تغييرا جذريا في القيم الأخلاقية على أساس فرض أوامر ونواهي للدين الجديد، وخشية الله وتقوى الله واليوم الآخر «فإن الممارسة القبلية لدى العرب لم تنقرض تماما. في وقت لاحق قام علماء وفقهاء المسلمين بتوسيع الأخلاق الدينية من القرآن والحديث بتفاصيل هائلة.

الأخلاق النظرية

الاختلاف بين الأخلاق الإسلامية والأخلاق النظرية مصدر الأخلاق الإسلامية الوحي، ولذلك فهي قيم ثابتة ومثل عليا تصلح لكل إنسان بصرف النظر عن جنسه وزمانه ومكانه ونوعه، أما مصدر الأخلاق النظرية فهو العقل البشري أو ما يتفق عليه الناس في المجتمع (العرف)، ولذلك فهي متغيرة من مجتمع لآخر ومن مفكر لآخر.

مصدر الإلزام في الأخلاق الإسلامية هو شعور الإنسان بمراقبة الله، أما مصدر الإلزام في الأخلاق النظرية فهو الضمير المجرد أو الإحساس بالواجب أو القوانين الملزمة.

خصائص الأخلاق الإسلامية التوازن بين مطالب الروح والجسد فلا تمنع حاجة الجسد من الشهوات والرغبات بل تضعها في إطارها الشرعي، فقال الله تعالى «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ»، فمن حق الإنسان إشباع رغباته بالضوابط الشرعية مع إشباع الروح بالذكر والطاعة والعبادة.

الأخلاق الإسلامية صالحة لكل إنسان ولكل زمان ومكان مع اتصافها بالسهولة واليسر ورفع الحرج فيقول الله «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»

لا يحكم على الأفعال بظاهرها فقط ولكن تمتد إلى النوايا والمقاصد والبواعث التي تحرك هذه الأفعال الظاهرة، يقول صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات».

مبادئها تقنع العقل وترضي القلب، فما من نهي شرعي إلا معه مسوغات ودوافع تحريمه فيقول الله: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» (الإسراء32) وقوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» (المائدة90–91)، وكذلك الأخلاق الإسلامية تقبلها الفطرة السليمة ولا يرفضها العقل الصحيح.

أنواع الأخلاق

مكانة الأخلاق الإسلامية والآداب العالية في الإسلام: ولما كان دين الأسلام دين جمع كل خير، فالأخلاق الكريمة والآداب الرفيعة لها نصيب كبير في تعاليم الإسلام، وقد وصف الله تعالي نبيه صلى الله عليه وسلم في مقام مدحه والثناء عليه بقوله «وإنك لعلى خلق عظيم» وهذا يعني أن الخلق الكريم له مكانة عظيمة في الإسلام، وقد قال صلى الله عليه وسلم «انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقال صلى الله عليه وسلم «خياركم أحسنكم أخلاقا» وقال صلى الله عليه وسلم «أثقل شيء في الميزان خلق حسن»، وقد جاءت أحاديث كثيرة دعا صلى الله عليه وسلم فيها أمته إلى حسن الخلق وحثها علي مكارم الأخلاق ومعالي الآدب، وأبى عليها سفاسفها وأراذلها، وقد ذكر الإمام ابن القيم: أن الاداب في الدين الإسلامي تنقسم إلى ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه: وهو صيانة معاملته معه ألا يشوبها نقيصة، وصيانة قلوبه من أن يلتفت إلى غيره، وصيانة إرادته من أن يتعلق بما يمقته الله عليه، وأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم : والقرآن مملوء به، ورأس الأداب معه كمال التسليم له، والأنقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق، ومن الأدب معه أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولانهي ولا إذن، ولا تصرف، ومن الأدب معه ألا ترفع الأصوات فوق صوته. فإنه سبب لهبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سننه.. إلى أن قال: وأدب مع الخلق: وهو معاملتهم على أختلاف مراتبهم بمايليق بهم، فلكل مرتبة أدب، فمع الوالدين أدب، ومع العالم أدب، ومع السلطان أدب يليق به، ومع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب، والضيف وهكذا، ولكل حال أدب، الأكل والشرب والركوب والدخول والخروج والنوم والاستماع والسكوت.. وأدب المرء عنوانه سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، وقد اهتم الإسلام بتربية الأمة الإسلامية على الأخلاق الفاضلة والآداب الكريمة شديد الاهتمام، واعتنى بها القرآن الكريم والسنة النبوية غاية العناية، وخصص جامعو كتب السنة أبوابا وفصولا من كتبهم لبيان تلك الأخلاق والآداب، ومنهم من ألفوا كتبا خاصة لبيان هذه الآداب الإسلامية لأهميتها في حياة المسلم ومن هذه الكتب النافعة المفيدة كتاب «الأدب المفرد» لأمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله (صاحب التاريخ الكبير والجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المشهور بصحيح البخاري) فقد جمع فيه الفضائل والآداب التي لا يستغني عنها أي بيت ويفتقر إليها كل مسلم في حله وترحاله، في بيته وبين أهله وجيرانه وفي جميع علاقاته العائلية والاجتماعية، ومن شروحات هذا الكتاب، أي الكتب التي شرحت (كتاب الأدب المفرد) كتاب رش البرد شرح الأدب المفرد للشيخ د. محمد لقمان السلفي، وكتاب «فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد» للشيخ فضل الله الجيلاني.

ومن مكارم الأخلاق في الإسلام الصدق والأمانة والحلم والشجاعة والمروءة والمودة والصبر والإحسان والتروي والاعتدال والكرم والإيثار والرفق والعدل والإنصاف والحياء والشكر وحفظ اللسان وإتقان الأعمال والعفة والوفاء والشورى والتواضع والعزة والستر والعفو والتعاون والرحمة والبر والتواضع والقناعة والرضا والعزيمة وعدم الخوف في الحق لومة لائم.

■ جعفر بن أبي طالب لخص الأخلاق الإسلامية في حديثه مع النجاشي

■ تعاليم الإسلام من قرآن وسنة أحدثت تغييراً جذرياً في القيم الأخلاقية الإنسانية

■ مصدر الإلزام في الأخلاق الإسلامية الشعور بمراقبة الله أما في النظرية فالضمير المجرد

من مرضعات النبي صلى الله عليه وسلم.. أم أيمن وحليمة السعدية

■ ظهرت بركة النبي على أغنام السيدة حليمة العجفاوات التي أفاضت باللبن الذي لم يُعهد

■ اضطراب الأعصاب الذي صاحب الحضارة الحديثة يعود إلى البعد عن الطبيعة والإغراق في التصنع

كانت حاضنته صلى الله عليه وسلم أم أيمن بركة الحبشية أَمَةَ أبيه، وأول من أرضعته ثويبة أَمَةُ عمه أبي لهب فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة أن أم حبيبة رضي الله عنها أخبرتها أنها قالت: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان، فقال: «أو تحبين ذلك؟» فقالت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن ذلك لا يحل لي» قالت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة؟» قلت: نعم، فقال: «لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن».

وكان من شأن أم أيمن، أم أسامة بن زيد، أنها كانت وصيفة لعبدالله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحتضنه حتى كَبِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة ثم توفيت بعد ما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر.

حليمة السعدية

حليمة السعدية مرضعته في بني سعد:وهذه حليمة السعدية تقص علينا خبرا فريدا، عن بركات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم التي مستها في نفسها وولدها، ورعيها وبنتها.

عن عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن الرضعاء بمكة قالت حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي، قمراء ومعي زوجي الحارث بن عبد العزى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت أتاننا، ومعي بالركب شارف والله ما تبض بقطرة لبن، في سنة شهباء قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعي ابن لي، والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئا أغذيه به، إلا أن نرجو الغيث وكانت لنا غنم، فنحن نرجوها.

فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يكرم الظئر ويحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده، فكل صواحبي أخذت رضيعًا، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه وأخذته، والله ما أخذته إلا إني لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لأخذن هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئا، فقال: قد أصبت.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرحل، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرّحل، فأمسيت أقبل ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويت أخاه، وقام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل فحلبها، فأرواني وروي، فقال: يا حليمة تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمن، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعًا، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء فحملته معي، فوالذي نفس حليمة بيده لقطعت الركب حتى إن النسوة ليقلن: أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله حملت عليها غلاما مباركا.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرًا، حتى قدمنا والبلاد سنة، ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يروحون، فتروح أغنام بني سعد جياعًا، وتروح غنمي بطانًا، حفلاً فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزى، وغنم حليمة تروح شباعًا حُفَلاً، وتروح غنمكم جياعًا، ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعًا كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشب شبابًا ما يشبُه أحد من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبدًا ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: والله ما رأينا صبيًا قط أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباء مكة وأسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهرًا ثلاثة أو أربعة فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بهم لنا إذ أتى أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذاه واضجعاه، فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه يشتد، فوجدناه قائما، قد انتقع لونه فلما رآنا أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضممناه إلينا: ما لك بأبي وأمي؟ فقال: «أتاني رجلان وأضجعاني، فشقا بطني، ووضعا به شيئًا، ثم رداه كما هو» فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقي بأهله، فرديه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قضى الله الرضاعة وسرنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحب إلينا، فقالت: إن لكما شأنا فأخبراني ما هو، فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأنا، أفلا أخبركما خبره، إني حملت به، فوالله ما حملت حملا قط، كان أخف علي منه، ولا أيسر منه، ثم أريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل ببصري –أو قالت: قصور بصري–، ثم وضعته حين وضعته فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء فدعاه عنكما فقبضته، وانطلقنا.

دروس وعبر

أ – بركة النبي صلى الله عليه وسلم على السيدة حليمة: فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثدييها وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في سكون الطفل ولدها، وقد كان كثير البكاء مزعجًا لأمه يؤرقها ويمنعها من النوم، فإذا هو شبعان ساكن جعل أمه تنام وتستريح، وظهرت بركته في شياهم العجفاوات التي لا تدر شيئًا، وإذا بها تفيض من اللبن الكثير الذي لم يُعهد.

ب – كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له، وأكرم بسببه بيت حليمة السعدية التي تشرفت بإرضاعه، وليس من ذلك غرابة ولا عجب، فخلف ذلك حكمة أن يُحب أهل هذا البيت هذا الطفل ويحنوا عليه ويحسنوا في معاملته ورعايته وحضانته، وهكذا كان فقد كانوا أحرص عليه وأرحم به من أولادهم.

جـ – خيار الله للعبد أبرك وأفضل: اختار الله لحليمة هذا الطفل اليتيم وأخذته على مضض؛ لأنها لم تجد غيره، فكان الخير كل الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه وهذا درس لكل مسلم بأن يطمئن قلبه إلى قدر الله واختياره والرضا به، ولا يندم على ما مضى وما لم يقدره الله تعالى.

د– أثر البادية في صحة الأبدان وصفاء النفوس، وذكاء العقول: قال الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله –: وتنشئة الأولاد في البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدنى إلى تزكية الفطرة وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف.

لذة التنفس

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش.

ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود – فيما يعود – إلى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنع، ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم، وكثير من علماء التربية يودون لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق.

وتعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بادية بني سعد اللسان العربي الفصيح، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر يا رسول الله ما رأيت أفصح منك. فقال صلى الله عليه وسلم: «وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت في بني سعد». ما يستفاد من حادثة شق الصدر:

تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شق الصدر في صغره، فعن أنس بن مالك: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني ظئره – فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال انس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره.